الجوع يسرق المدينة

للشاعر ممدوح عدوان

لم يزل فقراء القرى يأكلون البذار
لقمة توقف الجوع ، وليهجم السيل ،
مستقبل الجوع اوضحه أمسه
والخواء يفرّخ وسط الجرار
لم يزل فقراء القرى يولدون من الكسل المر
ينمون فيه عجافا : ثمار السنين العجاف
ويروّضهم جوعهم ليظلوا خراف
يفقدون الدموع وتبقى العيون الكسيره
يستوي الامر ، هذا البوار كهذي المواسم
اذ لا يرون القطاف
حصة الجوع ليست سوى حرقات الليالي المطيره
(في ملاهي المدينة يعلو الضجيج عن الحق والمدن الفائبة
في مقاهي المدينة يصاعد الصوت مثل الستار
فيخبىء جوع القرى بحرارته الكاذبة
ويغلق في أوجه البائسين أسى المثل الخائبه
في نساء المدينة يضحي الطعام أجور البغاء
تبدل أنثى المدينة روادها
مثلما بدلت نسوة الفقراء الالم)
وانا في زمان الطوي حرقة غاضبه
وانا في الملاهي ضجيج وبين المقاهي ستار كلام
وبين النساء خؤون
حامل منذ جئت نحول القرى المتعبة
حامل شهوة للرغيف ، وللفرح المستحيل ،
ولحم النساء ، وبعض الجنون
كل يوم ابلل وجهي لاغسل عنه الندم
(كيف أمحو ملامحه المذنبة ؟)
أرسم البسمات فأطلي ندوب ضغينة اهلي
التي ضيعت في المواسم
انقل الخطو محترسا واخبىء حقدي كخنجر آثم
أسرق الضحك والجسد المستباح
واكشف وسط العناق الرياء
واعود الى بيتنا مثقلا بالغنائم
فأعانق اهلي ونقتسم الضحكات :
لانا استدنا دموع التعازي
وضحكات افراحنا
وسواد المآتم
وانا حامل دمهم :
كل ثأر يخبئه المتخمون
كل ثأر توزّع بين القرارات
والامنيات التي علّبت
والدموع التي حولت للمساحيق ماء
وانا حامل دم أهلي الذين تزور آلامهم
كل صبح وكل مساء
وانا أعرف الجوع اذ يتنكر صوما وأكل بذار
وانا أعرف الخوف اذ يتبدل تقوى وحب شجار
وانا أعرف الذل اذ فرضوه القناعه :
نكران هذي الحياه
جوعهم كافر :
صار ذاكرة وبطونا مورمة
وجلود صبايا مهدله
وامتنانا لفضل السماء
جوعهم يتحول كابوس عمر
واهلي يقولون غير كلامهم
يسلبون التأوه ،
لم يعطهم عمرهم غير صوت الدعاء
انا وحدي دخلت الى دغلة الوحش
عليّ سأعرف جوعي الذي خبأوه
وراء المنى الماكرة
وسلاحي دهائي :
به اتقن الرقص عبر الدهاليز
أتقن ان ادعي شبعا
عفة لتغلف شهوتي الغائرة
اتأبط حقدي القديم وامضي رشيقا كطفل بريء
أتجاهل فقري القديم ، وحين أرى نبعه بينهم
سأداري اضطرابي ببعض الغناء
مستخفا بما يتساقط مني على الدرب
تحت سياط الطغاة أو الاعين الفاجرة
ما الذي سأداري :
كرامتي المستباحة تحت السياط ،
أم المستباحة تحت سنابل خيل الغزاة
أم اليأس لحظة أكل البذار
ما الذي سوف أبكي :
بلادي التي فقدت
ام بلادي التي نضبت تحت اقدام اهلي الحفاه
أم بلادي التي ركضت، حملت خوفها من جنون الطغاه
ثم ألقت روافد أحزانها في سيول الغزاه

أم بلادي التي افتضحت واستراح بنوها على خزيها
وبماذا يغطي الفضيحة قوم عراة
آه يا أرضنا الناضبه
ما الذي نشّف النهر ،
رمضاء مجراه ؟ أم شمسه الساخنه ؟
ما الذي قتل النائمين
خناجر غدر ؟ ام العلة الكامنة ؟
ما الذي أكمل العري ؟
هذا الجراد الغريب؟أم الدود في التربة الحاضنه
من تراه سيبدأ فينا البكاء ؟
علنا بعده نطرح الاسئله
من تراه سيصرخ في كبرياء ؟
رافضا هذه المهزله
قبل ان تسقط المقصله

* * *

يا بلادي التي علمتني البكاء
ما الذي سوف تعطيني في المفاجأة المقبلة
بعدما حطم الجوع والخوف في جبهتي الكبرياء
ما الذي أسأل الآن والاسئله
وقفت تتزاحم خلف كوى أدمعي المقفله
لم تعد لي سوى وقفة الصمت وسط الشقاء
قبل ان تسقط المقصله

* * *

يابلادي اعذري دمعنا حينما ننزوي
واعذري حرقة الآخ في عجز أيامنا الخاويه
ما الذي ينفع الان هذا الصراخ ؟
وليس الصراخ مدافع
ماذا لديّ سوى الشعر
والشعر ليس بأرغفة او جنود
وانا في بلادي التي لست أقوى على هدم أبراج آلامها
لست أقوى على الصمت في بؤسها
لست أقوى على هجرها واجتياز الحدود
سرق الجوع منا البلاد فقال الولاه :
« لا تضيع المدينة حتى تصير بأيدي الغزاه »
قل اذن: ماسمه حين تأكل كل البذار ومدخرات الشتاء
ما اسمه النوم خوفا او الرقص خوفا ،
او الضحك خوفا ،
او العيش في المجزره
ما اسمه حين يقفل الباب نحو غد الفقراء
لا تقل لي : بلادك محمية بجنود تخفوا فلم أرهم
سأقول : بلادك محتلة بجنود تخفوا فلم ترهم
وأقول : البلاد مزورة
وجلود البنين خوت لا تضم سوى التبن
كيما تظل البلاد حنونا تدر الحليب
وأنا أترامى قتيل كوابيسها والهزال
افتح العين صبحا فأبصر زهر حدائقها تنكا
ثم تمسي الحدائق عند الدجى دركا
وبلابلها تختم اليوم بالتبغ ،
تبدأ صبح الغناء سعال
وقتيل المجاعة يصرخ فيها بغير كلال
فاسمع الصوت :
هذي بلادي التي عشت فيها كميت
وليست بلادك حين تبيع ثراها سلالا سلال
واسمع الصوت :
هذي بلادي التي جعت فيها
وليست بلادك انت الذي لا تراها سوى وجبة الغذاء
واسمع الصوت :
هذي بلادي التي علمتني البكاء
وبلادي الجزيرة منفية عن شواطئها
سرق الماء من بحرها
سرقت من علاها السماء
وبلادي طريق ، رصيفاه جوع
رصيف تسوّل لقمته من رصيف
والطريق بايدي الغزاة رغيف
وبلادي مشت مجبره
نشف الماء فيها ومات الكلأ
نقلت خطوها حيث شاء الظمأ
ووراها مشت مقبرة
وبلادي ضاقت دروبا وتاهت وراء السراب
واضاعت بنيها
ورائدها لم يعد ، لم يجئها النبأ
وبلادي مشت تبتغي أملا لم تره
لم تجد في الطريق سوى المجزره
كل نبع رأته مشت صوبه
وصلت قبلها المقبره

يا بلادي التي بدأت عمرها من دم الاورده
والتي سقطت بيننا مجهده
انا انكرت ايدي المعزين ، انكرت صوت العزاء
كابر الكل فيك وقالوا : ستنهض
قالوا : تفاجيء عودها بالبقاء
تنهض الارض ، قلنا ، وينهض فيها البشر
تنهض المثل المقعده
ينهض الرمل ، ينفض عنه الغبار
وينهض بين الصخور الشجر
ثم قلنا : سيصبح جوع الجياع سيوفا
ويضحى البكاء غناء
ترتدي الارض اثوابها : فالشحوب رداء
ومسحنا الدموع التي ذرفت في الزوايا
نقلنا خطانا بصمت
خشينا اندلاقك موتا
فيبصره الغرباء
وتلاقت عيون الاحبة (كان البذار لهم وجبة)
كان بين الوجوه عياء
وتلاقت عيون الاحبة في غفلة من عيون الحذر
فانفجرنا بكاء

دمشق

ممدوح عدوان